من مصنَّفات الغربيِّين في علماء الحِلَّة الفيحاء

(علم الكلام عند العلَّامة الحِلِّيّ ت٧٢٦هـ/١٣٢٥م)

سابينا شميدكه

م.د. عبَّاس حسن عبيِّس الجبوريّ

المديريَّة العامَّة للتربية في بابل

From Western Studies on the Scholars of
Al- Hillah Al-Fayhaa
(The Theology of Al-Allama Al-Hilli
(D.726 A.H./1325 A.D.)
By Sabine Schmidtke

Lect. Dr. Abbas Hassan Obeïs Al-Jubouri
The General Directorate of Education in Babylon

شـكَّلت دراسة مدينة الحِلَّة وأعلامها جزءًا مهمًّا من الدراسات الغربيَّة التي عُنيت بالحضارة الإسـلاميَّة بشـكلٍ عامٍّ، وفكر أهل البيت عليهم السلام بشكلٍ خاصٍّ، ومردُّ ذلك؛ لما انـمازت به المدينة من مكانـة علميَّة عريقة بين المدن الإسـلاميَّة، وما أنتجه أعلامها من مؤلَّفات في مختلف صروح العلم والمعرفة، ولاسـيَّا العلوم الدينيَّة والفقهيَّة والإنسانيَّة والتطبيقيَّـة. يزاد على ذلك الأثر الذي كان لعلماء الحِلَّة في ازدهار الحضارة الإسـلاميَّة، بعد أن أفل نجم المدن الإسلاميَّة الأخرى، فأصبحت الحِلَّة منارًا للفكر والعلم في زمن عانت فيه حضارة الإسلام من نكبات عدَّة.

تنوَّعت الدراسـات الغربيَّة لمدينة الحِلَّة، فبعضها درس المدينة وتاريخها ، ولاسـيَّا أنَّها وريثة بابل العظيمة، وأخرى درسـت المدارس العلميَّة فيها، فضلًا عن الدراسـات التي تناولت مذهب أهل البيت عليهم السلام، وأخرى درسـت أعلام الحِلَّة وعلماءها، ومن بين هذه الدراسـات كتاب (علم الكلام عند العلَّامة الحِلِّي (ت٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م))، لمؤلِّفته الألمانيَّة (سـابينا شـميدكه)، وهي أسـتاذة ألمانيَّة تعدُّ من أبرز المستشرقين المعاصرين في تاريخ الفكر الإسـلاميّ، حصلت على شهادة الماجسـتير من معهد الدراسات الشرقيَّة والإفريقيَّـة بجامعة لنـدن عام ١٩٨٧، ثمَّ نالت درجة الدكتوراه من جامعة أكسـفورد عام ١٩٩٠، عملت بعدها محاضرةً في الدراسـات الإسـلاميَّة بجامعة بون، ثمَّ درَّست الدراسـات الإسـلاميَّة في جامعـة برلـين الحرَّة، وهـي الآن أسـتاذة التاريـخ الفكريّ الإسـلاميّ في كليَّة الدراسـات التاريخيَّة في معهد الدراسـات المتقدِّمة في برينسـتون في الولايـات المتَّحدة الأمريكيَّة. تركَّزت معظم مؤلَّفاتها وأبحاثها في فكر أهل البيت عليهم السلام، وعلـم الكلام لـدى (المعتزلـة والأشـاعرة)، والملل والنِّحـل في الاسـلام، فضلًا عن التفاعل الفكريّ بين الإسـلام واليهوديَّة والمسـيحيَّة، ويتجـاوز إنتاجها العلميّ المئات

مـن البحوث الأكاديميَّة، ما بين كتب مؤلَّفة، وأخرى محقَّقة، ومقالات علميَّة، وأوراق بحثية متنوِّعة، ومن أبرز مؤلَّفاتها:

١. المرجع في تاريخ علم الكلام.

٢. تاريخ علم الكلام عند الشيعة الإماميَّة.

٣. دليل أكسفورد للفلسفة الإسلاميَّة.

٤. علم الكلام عند العلَّامة الحِلِّيّ (ت٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م).

٥. الفكر الإماميّ في إيران خلال العصر الإيلخانيّ: آل الحمصيّ الرازي.

٦. مؤلَّفـات الشريـف المرتـضى وفكـره، دراسـة أركيولوجيَّـة للنصـوص وانتقالها.

٧. الدراسات العربيَّة اليهوديَّة.

٨. تحقيق آثار ابن أبي جمهور الأحسائيّ.

٩. بدايات الدراسات الشيعيَّة في ألمانيا، رودولف شتروتمان ومراسلاته.

١٠. تاريخ المخطوطات الزيديَّة في اليمن.

١١. تحقيق أفكار ورسائل أئمَّة الزيديَّة.

وغيرها الكثير من المؤلَّفات والتحقيقات والأبحاث الأكاديميَّة.

وعـن كتابها (علـم الكلام عنـد العلَّامة الحِـلِّيّ (ت٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م))، فهو في الأصل أطروحة دكتوراه قدَّمتها إلى جامعة أكسـفورد عام ١٩٩٠، ثمَّ أصدرتها كتابًا في ألمانيا عام ١٩٩١ ، وفيما يأتي عرض لهذا الكتاب.

العنوان باللغة الإنكليزيَّة:

(The Theology of Al-Allama Al-Hilli (D. 726/1325))

صدر في عام ١٩٩١، من دار نشر (كلاوس شوارتز فيرلاغ) في برلين بألمانيا، ضمن سلسلة (دراسات إسلاميَّة)، المجلَّد رقم ١٥٢، وبلغ عدد صحائفه ٣٥٥ صحيفة.

وتُرجِم الكتاب إلى اللغة الفارسيَّة بعنوان (انديشه‌هاى كلامى علامه حلى)، وترجمه (أحمد آرام)، وهو من كبار المترجمين في إيران، وصدر عن مجمع البحوث الإسلاميَّة التابع للعتبة الرضويَّة في مشهد المقدَّسة سنة ١٩٩٩م، وبلغ عدد صحائفه ٤٧٢ صحيفة.

تكوَّن الكتاب من **مقدِّمة وسبعة فصول وخاتمة**، درس **الفصل الأوَّل** (سيرة العلَّامة الحِلِّيّ)، وتطرَّقت فيه الباحثة إلى حياة العلَّامة وأسرته ونشأته في الحِلَّة والنجف، وأساتذته الذين درس على أيديهم، ثمَّ أوضحت علاقته بالسلطان المغوليّ (أولجايتو)، والمدَّة التي قضاها في بلاطه، وتكلَّمت على السنوات الأخيرة في حياته، ثمَّ أنهت الفصل ببيان أهمِّ تلاميذه، ورأت الباحثة أنَّ العلَّامة الحِلِّيّ لم يكن عالمًا شيعيًّا بارزًا فحسب، بل كان المؤسِّس الحقيقيّ للمرحلة الفكريَّة الجديدة للتشيُّع الإماميّ في العصر الوسيط المتأخِّر، فهو لم يكن مفكِّرًا معتزلًا في صومعته، بل كان رجل دولةٍ وفكر، وكان مؤسَّسة اجتمعت في آنٍ واحد، واستطاع بفضل مرونته السياسية وعمقه الفلسفيّ أن يجعل من الكلام الإماميّ لغة رسميَّة ومقبولة في الأوساط العلميَّة الإسلاميَّة الكبرى في القرن الثامن الهجريّ.

أمَّا **الفصل الثاني**، فقد خصَّته الباحثة بـ(مؤلَّفات العلَّامة الحِلِّيّ) في مختلف المجالات: العقائد وعلم الكلام والفلسفة والمنطق والفقه والتراجم والنحو

والعرفان والتفسير وغيرها، وأنهت الفصل بملحق يحتوي على قائمة بمؤلَّفات العلَّامة.

أطلقت المؤلِّفة في هذا الفصل لقب (مهندس الفكر الإماميّ) على العلَّامة الحِلِّيّ، فهو في مؤلَّفاته استطاع أن يؤسِّس مكتبة علميَّة شاملة ظلَّت هي المعتمَدة والمدرَّسة في الحوزات والجامعات الإسلاميَّة لقرون طويلة، وأنَّ كتاباته كانت السبب الرئيس في حفظ التراث الكلاميّ والفلسفي لمن سبقه من العلماء.

وجاء **الفصل الثالث** بعنوان (العدل الإلهيّ)، وركَّزت فيه الباحثة على آراء العلَّامة الحِلِّيّ في العدل الإلهيّ، وقُسِّم إلى عدَّة محاور، منها: الموضوعيَّة الأخلاقيَّة مقابل الذاتيَّة الإلهيَّة، وماهيَّة العدل الإلهيّ، والتزام الله تعالى بالعمل وفق المصلحة الفضلى تجاه عباده، فضلًا عن مسألة (الجبر والاختيار)، وإثبات حريَّة الإرادة الإنسانيَّة.

وقد أظهرت الباحثة في هذا الفصل العلَّامة الحِلِّيّ متكلِّمًا عقلانيًّا صارمًا؛ نجح في جعل مبدأ (العدل الإلهيّ) منظومة أخلاقيَّة متماسكة منطقيًّا، استطاع بها تنزيه الذات الإلهيَّة، وفي الوقت نفسه إعطاء الإنسان مسؤوليَّة أخلاقيَّة كاملة عن أفعاله وإرادته.

وناقش **الفصل الرابع** المعنون بـ(النبوَّة) القواعد العقليَّة والشرعيَّة التي تُبنى عليها فلسفة النبوَّة، وضرورة الرسالة، وقُسِّم على خمسة محاور، هي (الغاية من البعثة النبويَّة)، واستناد العلَّامة إلى قاعدة (اللطف الإلهيّ)، و(عصمة الأنبياء)، ودرجاتها قبل البعثة وبعدها، و(أدلَّة إثبات نبوَّة النبيّ محمَّدﷺ) لدى العلَّامة الحِلِّيّ، و(إعجاز القرآن الكريم)، وموقفه من الخوارق والكرامات لغير الأنبياء، وقد قدَّمت الباحثة تحليلًا دقيقًا لمفهوم النبوَّة عند العلَّامة الحِلِّيّ، مبيِّنةً كيف قام بتأسيس رؤية متماسكة تجمع بين العقلانيَّة الكلاميَّة والخصوصيَّة العقائديَّة الشيعيَّة.

وحلِّل **الفصل الخامس** (الصفات الإلهيَّة) الرؤية الكلاميَّة والفلسفيَّة للعلَّامة الحِلِّيّ حول مسألة التوحيد، وأدلَّة إثبات وجود الله وصفاته وكيفيَّة تعقُّلها، واستدلالات العلَّامة على وجود الخالق، وتألَّف من محاور منها (صفات الله الذاتيَّة ودلالاتها)، وفيه يتبنَّى العلَّامة الحِلِّيّ الرأي القائل بأنَّ صفات الله الذاتيَّة، كـ(القدرة والعلم والحياة)، ليست معاني زائدة على الذات كما يرى الأشاعرة، بل هي عين الذات المقدَّسة، و(الله بوصفه موجودًا)، يعرض الحِلِّيّ الأدلَّة الكلاميَّة والفلسفيَّة على وجود الصانع، ويفضل دليل الإمكان والوجوب، و(نطاق القدرة الإلهيَّة)، و(الله بوصفه عالمًا)، إذ يقيم العلَّامة الدليل على أنَّ قدرة الله تتعلَّق بجميع الممكنات من دون استثناء، وغيرها من المحاور.

أمَّا **الفصل السادس** الذي حمل عنوان (الفناء والمعاد)، فقد ناقشت الباحثة فيه آراء العلَّامة الحِلِّيّ العقليَّة حول مسألة الفناء والمعاد، وقُسِّم على محورَين، الأوَّل (وجوب إعادة الإنسان إلى الحياة)، بحث فيه وجوب إعادة الخلق للحياة بعد الموت عقلًا، وحلَّل حقيقة الفناء والإعادة (هل الإعادة هي جمع للأجزاء الأصليَّة المتفرِّقة، أم هي خلق جديد؟)، مناقشًا آراء الفلاسفة والمتكلِّمين في المعاد الجسمانيّ.

والمحور الثاني (طبيعة الفناء والمعاد)، درست فيه آراء العلَّامة حول كيفيَّة عدم الأجسام وإعادتها يوم القيامة (المعاد الجسمانيّ). وتُنهي المؤلِّفة الفصل بتأكيد أنَّ معالجة العلَّامة الحِلِّيّ لمسألة الفناء والإعادة تُعدُّ أنموذجًا مثاليًّا لظاهرة فلسفة علم الكلام في العصر الوسيط المتأخِّر.

وجاء **الفصل السابع** بعنوان (الوعد والوعيد)، بيَّنت فيه الباحثة معالجة العلَّامة الحِلِّيّ لمسائل الجزاء الأُخرويّ، وكيفيَّة عقاب العاصي، وحدود المغفرة، والشفاعة، والتوبة، وقُسِّم على خمسة محاور، منها (الثواب والعقاب)، عرضت فيه متبنَّيات

العلَّامة حول الجزاء، وأنَّ الثواب والعقاب ليسا مجازاة تحكميَّة فحسب، بل هما نتاج عادل لاستحقاق المكلَّف بناءً على أفعاله وحريَّته الإنسانيَّة، ومحاور أخرى هي (مسألة مرتكب الكبيرة من المسلمين)، و(العفو الإلهيّ)، و(الشفاعة)، و(التوبة).

وتختم الباحثة الفصل بالإشارة إلى أنَّ التشيُّع الإماميّ في القرنَين السابع والثامن الهجريَّين كان مدرسة انتقائيَّة واعية، انتجت عقيدة متوازنة تجمع بين العدل الأخلاقيّ الصارم، والرحمة والشفاعة الشيعيَّة.

وفي **خاتمة الكتاب** خلصت الباحثة إلى مجموعة من النتائج والتوصيات، ومنها أنَّ العلَّامة الحِلِّيّ أعاد صياغة المنظومة الكلاميَّة والفكريَّة للتشيُّع الإماميّ، وأنَّه تمكَّن من نقل الفكر الشيعيّ من مرحلة المقولات الكلاميَّة المتفرِّقة إلى نظام لاهوتيّ متكامل، يمتلك أدواته المنطقيَّة والفلسفيَّة الخاصَّة، وأكَّدت أنَّ علم الكلام الإسلاميّ في العصر الوسيط المتأخِّر (بعد القرن السادس الهجريّ/ الثاني عشر الميلاديّ)، لم يمرَّ بمرحلة ركود أو انحطاط، بل شهد حركة تجديد ديناميكيَّة جبَّارة.

وأوصت الباحثة في خاتمة كتابها بضرورة العودة إلى المخطوطات، وعدم الاكتفاء بالمؤلَّفات المطبوعة لكتب الكلام، وضرورة استكشاف خزائن المخطوطات في إيران والعراق واليمن وأوروبا لإعادة تحقيق النصوص الكلاميَّة بدقَّة، وضرورة تتبُّع التراث المكتوب لعلماء مدرسة الحِلَّة؛ لتبيين مدى التأثير والتأثُّر في البيئة العلميَّة للقرنَين السابع والثامن الهجريَّين.

وينتهي الكتاب بقائمة المراجع والمصادر للأعمال المطبوعة والمخطوطات، وفهارس للأعلام والشخصيَّات والمفاهيم والمصطلحات الكلاميَّة والفلسفية، فضلًا عن عناوين الكتب والمؤلَّفات الواردة في الكتاب.